

رؤية عربية لمحددات السلام العالمي

(قراءة في أفكار خالد الحسن)

كمال متزو

menzou.kamal@gmail.com

(طالب باحث جامعة محمد الخامس السويسي كلية - سلا)

مقدمة

تُقدم هذه الورقة قراءة في الفكر السياسي لخالد الحسن، أحد مؤسسي حركة التحرير الوطني الفلسطيني وواحد من أبرز المفكرين والمنظرين المناضلين في العالم الإسلامي والوطن العربي. وهي قراءة تقوم على مراجعة مفردات رؤيته العربية الفلسطينية للسلام العالمي، للعمل على إعادة بنائها في إطار يسمح بتحليل النظام الدولي وفق مرجعية نظرية محلية.

كما وتهدف هذه الورقة إلى إبراز ما يتميز به المفكرون العرب من قدرة نظرية ومنهجية مخصصة في تحليل النظام الدولي، كما وأنها تهدف إلى إبراز دور الفكر والقيم السياسية في تشكيل الخبرة السياسية الوطنية للحركات التحررية ومجتمعاتها بصفة عامة، ناهيك عن كونها بالأساس محاولة لتسليط الضوء على دور الخبرة السياسية العربية في تحديد منظومة قيم الأمة العربية الإسلامية وإحيائها على صعيد النظر والممارسة وذلك بما يستجيب لمتطلبات الواقع المعاصر.

وتأمل الورقة أن تساهم في النقاش الفكري الدائر حول "الربيع العربي" وأثر هذا الربيع على رؤى وأدوار الفاعلين السياسيين عربيا وأحزابا ومنظمات وتشكلات سياسية، كما تأمل أن تشكل خلاصاتها علامات يهتدي بها السياسيون العرب وسائر من تولوا إدارة أمور شعوبهم.

وبالفعل يعتبر خالد الحسن مفكرا استراتيجيا كما يشهد له الكثير من السياسيين وكبار قادة الدول العربية¹، وقد ساعدته رؤيته الفكرية الثاقبة على كسب احترام خصومه قبل أصدقائه واعتبار أفكاره وطروحاته التي أمكنها أن توظف رؤيتها لمفاعيل المصالح العربية في توقع العديد من مآلات المبادرات العربية توقعات صحيحة إلى حد كبير.

ومن هنا فقد اعتنت هذه الورقة بمحاولة رصد أهم محددات السلام العالمي في فكر خالد الحسن، والمنطلقات النظرية الفكرية التي يركز عليها كمفكر عربي مسلم، حيث نلمس كيف تصل هذه المحددات الماضي بالمستقبل في ظل استمرارية تجعل من الشرعية التاريخية مرتكزا لضمان حقوق الشعوب بما فيها الشعب العربي في فلسطين وشرطا للسلام العادل (الفصل الأول)، وحيث نجد في الإطار نفسه، كيف يشكل العدل عند أبي السعيد قيمة ناظمة لمشروع الفكر المتصل بإقامة السلام في العالم عموما وفي الوطن العربي خصوصا (الفصل الثاني). ولقد استخلصنا بناء على ما سبق أنه لن يكون لمشروع السلام في "الشرق الأوسط" كمحدد للسلام العالمي أي شرعية مقبولة ما لم ينفك عن شرعية السيطرة العالمية التي تُحجب بشرعية القانون والديمقراطية، والتي تتنافى أيضا في أسسها

1. كلمات في ذكرى خالد الحسن (أبو السعيد) توهج الحضور في عتمة الغياب: على درب العودة إلى حيفا، إعداد ناصر خالد الحسن، الرباط 1995.

ومنطلقاً مع الشرعية التاريخية للجماعات الإنسانية من حيث هي تتنافى بالأصل مع شرعية العدل بالحق (الفصل الثالث).

بين الماضي والمستقبل: السلام المشروع والسلام المفروض

لا يمكن أن نفصل مفهوم السلام عند خالد الحسن عن متطلبات الشرعية التاريخية، إذ لا يتحقق السلام بهذا المعنى بالاعتراف بإسرائيل وبتطبيع العلاقات معها، بل بعودة الحقوق التاريخية للشعب العربي الفلسطيني بما هي حقوق تاريخية مثبتة بالعيش التاريخي المشترك على الأرض المشتركة ومسددة بالصمود المادي والرمزي في مواجهة الغزو الاستعماري الغربي الذي يشكل الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين ذروته المتجددة اليوم في ظل العولمة بالدعوات إلى السلام والحوار والتواصل وتغليب قيم السوق الاستبدادية على قيم الجماعات الإنسانية المحلية وفي مقدمتها قيم الجماعة الإسلامية وخبراتها المجتمعية الجمعية².

إن إقامة الكيان الإسرائيلي بالمنطقة على أساس القوة هو الذي أعطى هذه القوة مشروعية تتجاوز الشرعية في النظام الدولي، ومكنها أيضاً من اختراق هذا النظام الذي يظل قابلاً لمثل هذا الاختراق كونه يعبر بالأصل عن غلبة السيادة الحديثة "souveraineté moderne" على كل ما عداها من أشكال للانتظام الدولي يمكن أن تحتل فيه القيم المتعددة والخبرات المتنوعة موقعاً متقدماً في حل النزاعات بشكل يقوم على ممارسة التحكيم بالمعنى الفعلي للكلمة، أي باستدعاء كل مفردات التعارف والتلاحم الإنسانيين كقيم حاكمة للسلام وللحرب أيضاً.

و بهذا المعنى لا ينفك الحديث عن السلام عن منحى يقوم على المنطق الشكلي، أي على مفهوم للاستقرار المحسوب والمدعم بالأمن والسيطرة وبالتحكم الجغرافي والسياسي والإداري على حساب السكان وعلى حساب قدرتهم على التحكم بأنفسهم في سياق ممارسة الحياة اليومية. ومن هذا المنطلق يقارب خالد الحسن مفهوم "الأمن" الغربي الحديث بما هو الوجه الآخر للمكون المادي لمنظومة القيم الغربية حيث يقول:

"...إن الاستقرار القائم على الأمن، يمثل حالة مادية مفروضة بموازين القوى. كما

أن الحلول قد تقدم لتحقيق الاستقرار القائم على الأمن، لا يمكن إلا أن تستند على

القوة، حيث يرضخ الضعيف أمام مطالب القوي..."³.

وهو يرى أن الاستقرار المبني على أساس السلام العادل أجدر بالاعتبار، لكونه بالضبط نتاج لغة الوطن العربي وبما هو أداة فعالة لحفظ حقوق شعوب المنطقة أداة تؤمن لهذه الحقوق مدخلاً للعبور من المادي إلى المعنوي، حيث يقول:

"أما الاستقرار القائم على السلام، فيمثل حالة فكرية ونفسية تنمو بقوة القناعة الفكرية

والنفسية المرتبطة بالعدالة وبقوة الحق..."⁴.

هكذا يحاول خالد الحسن تأسيس مفهوم للسلام العادل منطلقاً من الشرعية التاريخية لسكان المنطقة و من حقهم في فلسطين كجزء لا يتجزأ من الجغرافيا البشرية والسياسية العربية الإسلامية.

². خالد الحسن، مستقبل السلام في الشرق الأوسط، وجهة نظر فلسطينية، عمان، ط 2، 1986، ص 16.

³. المرجع السابق، ص 14.

⁴. المرجع السابق، ص 14.

"أما العرب... فإن ضياع فلسطين يعني هزيمة قومية عسكرية وحضارية لهم، لما تمثله فلسطين من موقع جغرافي وحضاري في التاريخ العربي فضلا عن كونها جزءا من الوطن العربي وفي القلب من هذا الوطن"⁵.

وبناء على ذلك يركز خالد الحسن على الثقافة العربية مدعمة باللغة العربية باعتبارها أحد أهم المحددات الحاكمة للسلام الذي يفتح التحلي عنها الباب واسعا للاستسلام أمام التسلط الغربي والتراجع أمام محاولات الهيمنة الحديثة لاحتلال بلادنا⁶، كما ويؤدي إلى حجب مخزون الخبرة التاريخية لأمتنا كمنخزون فعال لا يتعين بأي أنساق سلطوية تحتكر القوة السياسية والاقتصادية والرمزية وتمنعها من الدوران في الجماعة كما نشهد اليوم في كل محاولات الإصلاح والتحديث والتجديد انطلاقا من التقريب وإحلال الحداثة السياسية مكان سياسات الهوية بما هي أشكال لتأسيس الذات العربية الإسلامية على أصول تتطابق مع مخزون الخبرة التاريخية هذا بما يجعلها أشكالا للالتحام الذاتي في مقابل الالتحام المفروض من قبل السلطة الخارجية.

ومن هنا لا يقصد خالد الحسن باللغة العربية دلالاتها الاصطلاحية أو النحوية أو الاستدلالية بل اللغة العربية بما هي كناية عن "المدرجات الجماعية" للشعب العربي، وهو ما يتضح بالفعل من كلامه عن التناقض في تمثل السلام بين اللغة العربية واللغة السياسية الأمريكية:

"الإصرار على فرض اللغة الأميركية - الغربية - الإسرائيلية على المنطقة، ورفض الاستماع إلى اللغة العربية، أو اللغة المشتركة على الأقل، في كل ما يتصل بالمنطقة. أي فرض خضوع المنطقة الكامل للأهداف والأفكار الأميركية - الإسرائيلية، وهذا هو سر الإعجاب الملفت للنظر من قبل القيادات الأميركية الإسرائيلية والغربية بمواقف السادات، لأن حقيقة موقف السادات أنه ألغى فكره العربي، وتبنى اللغة الأميركية، فصُور على أنه بطل السلام، بينما هو في الحقيقة بطل الاستسلام للفكر والأهداف الأميركية في المنطقة"⁷.

فهنا العودة إلى اللغة العربية بحسب أبي السعيد هي تعبير عن العودة إلى النموذج الحضاري العربي الإسلامي المدعم بالشرعية التاريخية على الأرض وبشرعية امتلاك نواة إدراكية وتصورية للوجود والعالم تحول دون الخضوع لشرعية القوة وتدفع بشكل دائم إلى مناجزتها عبر إقامة تواصل نظري وعملي فعلي بين الماضي والمستقبل وتحويل هذا التواصل إلى إمكانية مفتوحة للتحرر من الارتكان والتبعية. وهي الإمكانية التي تشكل بالفعل السمة المميزة لرؤية خالد الحسن التي قادت إلى معاندة التحرر السياسي العربي فيما يخص القضية الفلسطينية على أساس الحلول المرحلية منطلقا في ذلك مما تفترضه هذه الإمكانية من عدم قدرة الاحتلال الإسرائيلي على حل مشكلته الوجودية المتمثلة في عجزه عن كسر إرادة صمود السكان بما هي إرادة محكومة بمعايير الاشتداد الذاتي والتضامن الطوعي وهي معايير قد تخترق ولكنها لا تطوع. وهو ما يعبر عنه بقوله:

5. خالد الحسن، "مستقبل السلام في الشرق الأوسط"، وجهة نظر فلسطينية، عمان ط 2، 1986، ص 34.

6. انظر في هذا الشأن رأي خالد الحسن من موقف السادات. خالد الحسن، "مستقبل السلام في الشرق الأوسط"، وجهة نظر فلسطينية، عمان، ط 2، 1986، ص 22.

7. خالد الحسن، مستقبل السلام في الشرق الأوسط، وجهة نظر فلسطينية، عمان، ط 2، 1986، ص 22.

"إن مثل هذا التفكير إذا تحقق، يتطلب ما يلي: إدراك نتيجة التجربة للمائة وخمسين سنة الماضية حيث استعصت جماهير الأمة العربية على الرأسمالية والشيوعية، لأنها أمة تمتلك دورا وقدرة إبداع تاريخي حضاري، لم تلبس في تاريخها ثوب أي حضارة غير حضارتها"⁸.

وبالفعل فإن هذا التصور للنموذج الحضاري العربي الإسلامي كنموذج للفعالية تؤيده التجربة التاريخية للأمة هو ما يفسر بالضبط موقف خالد الحسن من التصالح مع العدو باعتباره استسلاما أمام الرؤية الغربية الحديثة للسلام التي لا تنفصل من حيث أصولها في الغرب عن الانتقال من التصور المسيحي القروسطي للسلام بما هو حالة وجودية إلى التصور الحديث الذي جعل منه مفهوما سياسيا يدخل فيه المحكوم في حقل الحاكم كمُعبر عن حقل السيادة الحديثة المطلقة على الحياة⁹، وحيث يؤدي هذا الاستسلام إلى القطع مع الرؤية العربية الإسلامية للسلام أو إلى تأويلها بما يقرها من منظومة القيم الغربية التي تفصل التفاعلات الدولية عن جذورها الوطنية والثقافية وتحولها إلى نزاعات ملحقة بالسلام العالمي¹⁰.

العدل بالحق: إعادة تعريف السلام العالمي

تأسيسا على ما تقدم، كيف يمكن أن يسهم الرجوع إلى الشرعية التاريخية كمدخل لتفسير الواقع العربي الإسلامي في مواجهة الاختلال الذي طرأ على مفهوم السلام وأدى إلى تحويله إلى مفهوم عام تفرضه القوى الحديثة كنموذج للعلاقات السياسية بين الحكام والمحكومين وكغاية تتوسط النزاعات بين الكتل الاجتماعية لتأمين ملكة الحكم عليها؟ والواقع أنه يمكننا أن نجيب عن هذا السؤال انطلاقا من مفهوم العدل الذي يشير إليه خالد الحسن بما هو مفهوم بالغ الأهمية من حيث قدرته على إعادة تعريف السلام بوصفه حالة وجودية بحيث يصبح أقرب إلى شكل الحكم الذي يتيح للجماعات المتخصصة ممارسة الحق في تقرير مصيرها دون طغيان أو غلبة أو إحلال لقيم التحكم مكان قيم العدالة والرحمة:

"...أن عظمة هذا الشعب الحضارية، تتجلى في عمق فكره ونظراته الإنسانية، ورفضه للعدوان وقدرته على ممارسة العدالة والرحمة مع غيره"¹¹.

وبالفعل يتجلى في تعريف خالد الحسن للسياسة أهم مظاهر هذا الارتباط بين العدل والحق كأساس لتعريف السلام: "السياسة هي الصديق مع الشعب، وفن المناورة مع العدو وفن تحقيق الممكن في إطار العدالة"، وهو التعريف الذي يجعله يميز بين اليهود والحركة الصهيونية والذي يمنعه أيضا بقدر ما يركز على حقوق شعبه من التعسف ضد عدوه بما هو أيضا يعبر عن تقاليد دينية لا تلخصها الحركة الصهيونية:

"...إن هذا الشعب [أي العربي]... يدرك أن الحركة الصهيونية شيء يختلف عن اليهود كدين، واليهود كجماعات من شعوب متعددة وحضارات متعددة تنتمي إلى هذا الدين، كالمسيحيين والمسلمين في انتمائهم إلى المسيحية والإسلام"¹².

⁸. المرجع نفسه ص 54.

⁹ - Cathrine pickstock : *After writing on the lityrical consumation of philosophy*, London, Blackwell, publishers 1998.

¹⁰. خالد الحسن، *هذا الإعتراف المستحيل*، الرباط، 1993، ص 7، 8.

¹¹. خالد الحسن، *مستقبل السلام في الشرق الأوسط، وجهة نظر فلسطينية*، عمان، ط 2، 1986، ص 56.

من هذا المنطلق يقبل خالد الحسن بحق اليهود العرب في العيش كمواطنين عرب بالوطن العربي كما كانوا يعيشون قبل نشوء دولة الكيان الإسرائيلي¹³، دون أن يعني ذلك الانزلاق إلى التشكيك بشرعية المقاومة المسلحة بما هي جزء من إرادة الصمود المدعومة بقوة الحق¹⁴:

"ولذلك كان من الطبيعي جدا، أن يرفض الفلسطينيون والعرب، ومعهم العالم الإسلامي، الوجود الإسرائيلي، ويطالبون ويعملون لتحرير فلسطين واستعادة هويتها العربية. إلا أن العمق الإنساني في الثقافة العربية، ومنها ثقافة شعب فلسطين، فضلا عن الإدراك الواعي للطبيعة الدولية للصراع، جعل الفلسطينيين في تنظيمهم لأنفسهم وبدء نضالهم في 1-1-1965، يتبنون هدفا يمثل أعمال درجات الوعي الإنساني، فحددوا أهدافهم بـ:

1. عودة اللاجئين الفلسطينيين إلى بيوتهم وديارهم.
2. المحافظة على وحدة التراب الفلسطيني في ظل دولة فلسطينية ديمقراطية علمانية بدون صهيونية، يعيش فيها اتباع الأديان الثلاثة كمواطنين متساوين في الحقوق والواجبات والمواطنة أمام القانون.
3. ثم وافقوا على قيام دولة فلسطينية على أي جزء يتحرر من الأرض الفلسطينية، على أن لا يكون ذلك حائلا دون العمل على تحقيق توحيد فلسطين في دولة ديمقراطية واحدة، بالوسائل الديمقراطية، إذا لم يقف الطرف الإسرائيلي عقبة أمام ذلك.
4. إن مسؤوليتهم في تحرير اليهود من الصهيونية لا تقل أهمية عن تحرير ألمانيا من النازية، لأن ذلك هو الطريق إلى إنقاذ اليهود في فلسطين من مصير الهزيمة التي ستكون مأساة كمأساة عام 1948 التي وقعت على شعب فلسطين.

أما وسيلة تحقيق هذه الأهداف فلسطينيا، فهي النضال المسلح إلى أن يصبح تحقيق هذه الأهداف بالأسلوب السلمي أمرا قابلا للتحقيق. إن الفلسطينيين يلاحظون، بكل دهشة وألم وانزعاج وغضب، كل ما سبق ذكره. إن استمرار قيام مشكلة اللاجئين بدون عودتهم إلى وطنهم، واستمرار الاحتلال الإسرائيلي لفلسطين لا يمكن إلا وأن يخلق حالة حادة جدا من الألم التي لا يمكن إلا وأن تدفع، كنتيجة طبيعية وحتمية، إلى العنف والتنظيم والنضال حتى يستعيدوا حقوقهم".

الشرعية الدولية ضد السلام العالمي:

وليس أدل على اختلال مفهوم السلام العالمي مما يشهده الوطن العربي الإسلامي من احتلال لأجزائه وعدوان على أراضيه، يتم باسم الحرب العادلة¹⁵ وهي من أخطر اختلالات مفهوم السلام من حيث أنها تعبر عن رؤية السلطة الحديثة لما تعتبر أنه قد يشكل خطرا على الديمقراطية، بمعنى إمكانية أن تطال هذه الحرب محاولات استقلالية عن النموذج الديمقراطي استنادا إلى خبرتها التاريخية كخبرة مستمرة في الزمان والمكان وتقاوم بذلك التنميط السلطوي

12. المرجع السابق، ص 57.

13. المرجع نفسه، ص 58.

14. المرجع نفسه، ص 35.

15. لمراجعة أشكال تدخل القوى الدولية خارج الشرعية الدولية انظر سعد الركراكي، العلاقات الدولية الميراث والرهان، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، 2000، صص 181-8.

الحديث باعتبارها تفلتا يقوم على الإرهاب¹⁶. وإن هذا ما يمكننا من فهم موقف خالد الحسن من الاحتلال الغربي حيث يقول:

"إن العالم الغربي، الأوروبي والأميركي، منذ الربع الثاني من القرن التاسع عشر، وهو يحتل العالم العربي جزءاً بعد الآخر، ويفرض عليه ثقافته وأفكاره وقوانينه بهدف تغيير بنيته الحضارية، وتحقيق انسلاخه عن حضارته وتراثه، بشكل صحيح أصبح فيه عالماً يعيش حالة انعدام وزن حضاري وفكري ذاتي. وهذا الوضع، يجعل عادة أصحابه في موقف العجز المطلق في مواجهة التحديات الخارجية"¹⁷.

هكذا يمكننا أن نلخص أهم مرتكزات القوة الغربية في العدوان والحروب من خلال تبنيها لآلية هجومية على التراث الغربي القديم القائم على الخبرة وتدميره ولاندفاع لتعميم هذا التدمير¹⁸ على أشكال أخرى من الخبرة أكثر قدرة على الصمود والمقاومة بما هي محمية ومدعمة بلغات دينية لا يمكن المس بها رغم محاولات الدولة القطرية كدولة تحديثية عاشت وما تزال تعيش على فتات السلطة الحديثة المس بها.

وهي المرتكزات التي ترمز إلى تحول النظام الدولي من كونه مساحة للقاء أي لكونه صيغة لحل ما يطرأ من اختلالات تطال العلاقات الدولية ليصبح نسقا ينتج نفسه بنفسه من خلال تحويل الفاعلين الدوليين إلى ذوات قانونية تحكمها ذات لا تبلغها أو تطالها أي ذات¹⁹. وبالتالي نحن لسنا هنا في سياق رسم محددات السلام العالمي من وجهة نظر عربية كما تبدو في فكر خالد الحسن أمام منظومتين للخبرة التاريخية تتقاتلان من حيث تعينهما بالأخذ بهذه الخبرة بل أمام رؤيتين تتنازعان حول موقعها في القول والفعل الدوليين²⁰.

وهكذا يمكننا أن نبين أهمية ما يقوله خالد الحسن في هذا الخصوص حيث لا تفتقد الرؤية العربية الإسلامية للسلام إلى المبادرات والحلول بقدر ما تحتاج إلى تجديد نفسها بمعنى العودة إلى التراث وفرزه بين مقام الغلبة ومقام لغات التسيير والتدبير واستخدام هذا الفرز كمنطلق للتمكين والتحرر السياسي الراهن في إطار قيم العدل بالحق، حيث يقول:

16. في مفهوم الإرهاب انظر طلال الأسد، *عن التفجيرات الانتحارية*، المركز الثقافي العربي، ترجمة فاضل حتكر، الدار البيضاء، 2008 ط 1.

17. خالد الحسن، *مستقبل السلام في الشرق الأوسط*، وجهة نظر فلسطينية عمان، ط 2، 1986، ص 37.

18. انظر في هذا الباب علي الأمين المزروعى: دراسات عالمية القيم الإسلامية والقيم الغربية. مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، بيروت، العدد 21.

19. يعتبر مارسيل ميرل النظام الدولي نسقا مغلقا على نفسه ينتج نفسه بنفسه، انظر كتابه: *سوسيولوجيا العلاقات الدولية*، دار المستقبل العربي، ترجمة حسن نافعة، 1986 ط 1.

20. خالد الحسن، *إشكالية الديمقراطية والبدليل الإسلامي في الوطن العربي*، ص 140. كما ونفهم ضمن هذا السياق القرار رقم 181 الصادر من الجمعية العامة بتاريخ 29 نوفمبر 1947 والقاضي بتقسيم أراضي فلسطين إلى 3 كيانات جديدة حيث صوت 33 عضو مع القرار و13 عضو ضده، فيما امتنع 10 عن التصويت. لتشرع من بعد سلسلة الحلول المحلية التي دامت أكثر من نصف قرن متجهة إلى مزيد من التطبيع مع الكيان المحتل وإجلاء ذوي الحقوق التاريخية بالمنطقة.

"عدم فرض لغة المعتدي في الحل، والتفاهم بلغة مشتركة، تتميز فيها حقوق المتعدى عليه"²¹.

وهكذا نفهم فحوى الوصية التي يوصي بها خالد الحسن لبنيه وأهله وأصدقائه بالاستمرار في درب النضال والمقاومة من أجل التمكين للأمة ولإحلال السلام العالمي²² وهي الوصية التي نأمل أن تجد صداها عند جيل أبنائه من شعبه وأُمته وخاصة ونحن نحاول اليوم التخلص من التبعية التاريخية للغرب التي تتجدد اليوم بقوة من خلال الدعوات المحلية إلى التقريب والتواصل الحوار.

21. خالد الحسن مستقبل السلام في الشرق الأوسط، وجهة نظر فلسطينية، عمان، 1986، ط 2، ص 52.

22. خالد الحسن مستقبل السلام في الشرق الأوسط، وجهة نظر فلسطينية، عمان، 1986، ط 2 وعلى وجه الخصوص الفصل: القوة العربية المجددة، ص 82.